مطبوعات حديثة

الامير عبد القادر

١٨٠٨ — ١٨٨٣ (١٢٢٣ — ١٣٠٠ هـ)

« من التعصب الاسلامي الى الوطنية الافرنسية »

تأليف الكولونل بول آذان (Colonel P.Azan) طبع في مطبعة هاشيت في باريز (١٩٢٥م ص ٣١١)

L'Emir Abd el Kader
1808 - 1883
« Du fanatisme musulman au patriotisme français »
Librairie Hachette - Paris - 1925.

كتب اكثر من الف كتاب ورسالة ومقالة عن تاريخ هذا الامير واعماله في إمارته الفتية ، وايام عزلته في منفاه ، وهجرته الى فرنسا والشام ، وقد اختلف ما كتبه عنه المؤرخون : فقال كل منهم بحسب هواه ومقاصده ، فمنه ما أملاه التعصب ، ومنه ما شوهه الغرض ، كما هو الحال في تدوين اكثر الوقائع التاريخية التي تكون قريبة من زمن وقوعها ، واكثر الذين كتبوا عن الامير عبد القادر كانوا معاصرين له متأثرين بعوامل شتى ، فمنهم الانصار المعجبون ، ومنهم الخصماء الناقمون ، وقد حذا حذوهم من كتب بعدهم ، فنقلوا ما نقلوه عن غيرهم على علاته من دون تحقيق ولا تمحيص .

ولما اطلعت على هذا الكتاب وقرأت هذا العنوان : « الامير عبد القادر — من التعصب الاسلامي الى الوطنية الافرنسية » . لم اشك بانها أنشودة أراد المؤلف بواسطتها ان يتغنى بمآثر جيش ينتمي اليه . فكأن الكاتب أراد بهذا العنوان الذي صدر به كتابه ، ان يجرّد الامير من كل شعور وطني ، وينسب قيامه الى تعصب ديني ، مع انه برهن في كل أدوار حياته على انه أبعد الناس عن هذه الوصمة . ولو لم يكن طموحاً لاستقلال بلاده وحرية ابناء جنسه ، لما ناصب الاتراك العداء حتى اضطهدوه وأخرجوه من بلاده (ص : ٤و٥و٦) فهذا يثبت بان قيامه كان لمقاومة كل استيلاء اجنبي ، لا فرق فيه عنده بين سلطة التركي المسلم وسلطان غير المسلم . واي برهان على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا اعظم من انه استعان بالافرنسيين لما أمن جانبهم في خلال معاهدتي (دهميشيل Desmichels سنة ١٨٣٤ وتافنا Tafna سنة ١٨٣٨م) ليقضي على النفوذ التركي المستحكم اذ ذاك في تلك البلاد (ص: ٣و٣٢و٣٣و٣٤) .

كان الامير عبدالقادر تقياً ورعاً ، بيد انه كان متسامحاً محباً للتجدد ، فلم يحجم قط عن التذرع بوسائل المدنية الحديثة الفعالة في اصلاح بلاده والنهوض بها ، على ما اعترف المؤلف به في مقدمته فقد نصح لحكومته بان تقتفي اثر الامير بقوله « يتحتم على فرنسا واجب كبير وهو ان تثقف الشعب (الجزائري) اولاً ، وتكونه كما أراد ان يفعل عبدالقادر » وقد ذكر المؤلف بان الامير استعان بآراء كثيرين من الاوربيين الذين انضموا اليه ، فمنهم افرنسيون والمان ومجريون واسبانيول . أليس كل هذا من شأنه ان يبرئ الامير مما ينسب اليه من تعصب وجمود ؟ .

وبعد فلم ار في كل هذا الكتاب ما يستدعي هذا العنوان الماس بسمعة رجل كانت جميع اعماله مفخرة لقومه وعصره . ولم يذكر لنا حادثة من اعماله يشتم منها روح التعصب ، بل كل ماذكره هو سلسلة تسامح وتساهل على ما يأمره به الاسلام . فان كان الكاتب يرى دفاع المرء عن بلاده تعصباً ، واستسلامه تسامحاً ، فنعم هذا التعصب وبئس ذاك التسامح . كما انه لم يأتنا بما يستدل منه على وطنيته الافرنسية ، اللهم الا صداقته لفرنسا وحمايته لرعاياها في حوادث الشام سنة (١٨٦٠ م ١٢٧٧ ه) .

ولعل الكاتب أراد بهذا العنوان ان يلطّف اساءة امته الى الامير ، وقد نكثت بوعدها واعتقلته بعد إلقائه سلاحه ، فأراد ان يجد مبرراً لهذا العمل — بان اعتقاله في فرنسا أثمر نتائج حسنة في تطور أخلاق الامير . لانه اتى الى فرنسا متعصباً صلباً ، ثم غادرها متسامحاً مرناً .

وقد افتتح الكاتب بحثه بالطعن في نسب الامير وشرفه بدون اثبات ولا اسناد ، مع انه لم يسبق لغيره انكار صحة نسبه ، بل بالعكس قد دونه الحفاظ في كتب النسب والشرف ، كما جاء في كتاب جوهرة المقول في ذكر آل الرسول لعبد الرحمن بن محمد القاسمي ، وفي كتاب التحقيق في النسب الوثيق للشيخ احمد بن محمد العشماوي ، وفي كتاب فتح الرحمن وشرح عقود الجمان للشيخ محمد بن محمد الجوزي الراشدي ، وكثير غيرهم من علماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الانساب المحققين . وقد أثبت ذلك في عقد البيعة للامير بما نصه : « .... فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل الا ذا النسب الطاهر ، والكمال الباهر ، رأس الملة والدين ، قامع اعداء الله الكافرين ، ابا المكارم السيد عبد القادر ابن مولانا السيد محيي الدين .... الخ» . وقد أقر بصحة ذلك العلامة السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق الشام ، واعترفت الحكومة العثمانية بذلك وعهدت لابن اخيه السيد نور الدين بنقابة اشراف الاستانة . وذكر (ص:١٩) ان ابن اخي الامير السيد الطيب كان قتل في احدى المعارك وصوابه (السيد احمد) . وجاء في (ص : ٢٤٥) بان ثلاثة من اولاده رافقوه الى فرنسا وبينهم عبد الله والحقيقة هو (الهاشمي) ثالث أولاده .

فالكتاب في مجموعه من أحسن ما كتب عن الامير ، وقد كان المؤلف في اكثر مواقفه معتدلاً منصفاً ، وخصوصاً في دفاعه عما نسبه اكثر المؤرخين الافرنسيين الى الامير ، من انه هو الذي نقض معاهدتي (دميشيل وتافنا) ، وكذلك اعترافه بان الامير بريء مما نسبه بعضهم اليه من قتل بعض الأسرى الافرنسيين . وان السياسة أوجبت اذ ذاك إفاضة هذه التهمة ، لإثارة الرأي العام الافرنسي .

فالكتاب على صغر حجمه مستوفي البحث ، غزير المادة ، ولا عجب فان المؤلف معروف بتدقيقه ، وطول باعه ، ومن يطالع قائمة المصادر التي استقى منها ، يدرك المصاعب التي ذللها ، للحصول على نتيجة لم يسبقه اليها احد من قبل .

جعفر عبد القادر الحسني